النزعة الاسميَّة – المنطقيَّة عند برتراند رسل

الدكتور قيس محمود محلا*

*** قائم بالأعمال في قسم الفلسفة – كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية**

الملخص

يقدِّم البحث فرضيَّة مفادها أنَّ النزعة الاسمية – المنطقيَّة هي الخيط الناظم لمجمل عناصر فلسفة رسل، وذلك من خلال التركيز على نقد رسل للعلاقات المنطقيَّة الداخليَّة في المنطق التقليديِّ، والاستعاضة عنها بمنطق العلاقات الخارجيَّة التي قادته إلى هجر الميتافيزيقا المثاليَّة التي اعتنقها في بداية حياته الفلسفيَّة، ومن ثمَّ اعتناق الواقعيَّة الجديدة التي قادته إلى الاعتراف بوجود العديد من الكيانات والموجودات الزائدة التي قد تسبب جملة من المشاكل الميتافيزيقية العويصة، فكان لا بدَّ والحال هذه من القيام بعمليَّة بناء منطقيٍّ تستهدف جزَّ تلك الكيانات والموجودات وبترها بواسطة مجموعة من الأدوات المنطقيَّة التي تشكِّل عناصر النزعة المذكورة.

كلمات مفتاحيَّة: الاسمية، المثاليَّة، الواقعيَّة، التجريبيَّة، البناء المنطقي، العلاقة المنطقية.

The Nominalism - logicism tendency of Bertrand Russell

Dr. Kais Mahmod Mhalla*

* **Academic Assistant in Department of Philosophy, Faculty of Art and Humanities, Tishreen University, Latakia, Syria**

Abstract

The research presents the hypothesis that the Nominalism-Logicism tendency is the organizer axis of all the elements of Russell's Philosophy, by concentration on Russell's criticism of the internal logical relations in Traditional Logic, and replacing them with the logic of external relations, which led him to abandon the Idealism Metaphysics that he embraced at the beginning of his Philosophical life, and then He embraced the new Realism, which led him to confess of existence of many unnecessary Entities and assets that might cause a number of difficult Metaphysical problems. In this case, it was necessary to carry out a process of logical construction aimed at break up and amputating these entities and existences using a set of logical tools that constitute the elements of the aforementioned tendency.

Keywords: Nominalism, Idealism, Realism, Empiricism, Logical Structure, Logical Relationship.

1. المقدِّمة:

إنَّ الخطوة الأولى في مشروع رسل الفلسفيّ هي خطوة منطقيَّة بامتياز تجسَّدت بانتقاده لمنطق القضايا الأرسطيَّة الحمليَّة التي لا يكون المحمول فيها سوى تحليل لمفهوم الموضوع، فلا شيء جديد طالما أنَّ هذا المنطق لن يحمِّل على الجواهر الثابتة إلاَّ الأعراض أو الكيفيات المقرَّرة سلفاً في علم الطبيعة وما بعد الطبيعة.

الأمر الذي دفع برتراند رسل (1872– 1970م) إلى الاستعاضة عن تلك العلاقات المنطقيَّة الداخليَّة بنوع جديد من العلاقات يحسب حساباً لكلِّ الأطراف الداخلة في العلاقة المنطقيَّة والمعرفيَّة، لابل إنَّه عدَّ العلاقة، بحدِّ ذاتها، كياناً قائماً بذاته لا يمكن ردُّه إلى أيٍّ من الطرفين؛ سواءٌ أكان موضوعاً أم محمولاً من جهة، أو كان ذاتاً أم موضوعاً من جهة أخرى، فقرَّر بذلك مشروعيَّة العلاقات المنطقيَّة الخارجيَّة التي دفعته إلى نبذ العلاقات المنطقيَّة الداخليَّة التي استخدمتها الفلسفات المثاليَّة في تقريرها لحقائق المعرفة والوجود على حدٍّ سواء.

هذا ما حدث بالفعل بعد أن هجر رسل الفلسفة المثاليَّة – التي كان قد تبنَّاها في بداية حياته الفلسفية عندما كان طالباً يدرس الرياضيات في جامعة كامبردج (1890– 1893م) – لأنَّها أذابت العلاقة المنطقيَّة في أحد طرفيّ القضيَّة، إما الموضوع وإما المحمول، لا بل أذابت موضوع المعرفة برمَّته لصالح الذات العارفة كما فعل باركلي، أو ذات عليا مطلقة كما هي الحال في مثاليات كلٍّ من ليبنتز وهيغل وبرادلي وماكتجارت وغيرهم، ومن ثمَّ اعتنق رسل هو وصديقه مور الواقعيَّة الجديدة ابتداءً من عام (1898م)، تلك الواقعيَّة الساذجة التي دأب طوال تاريخه الفلسفي على تهذيبها وجزِّ كياناتها الزائفة انطلاقاً من عمليَّة تأسيس منطقيَّة عميقة؛ ردَّ بموجبها الرياضيات إلى المنطق، ومن ثمَّ فإن عمليَّة التأسيس المذكورة للعلم الرياضيِّ سلَّحت رسل بعتادٍ نظريٍّ ومنهجيٍّ كان رأس حربته منهج البناء المنطقي (أو نصل أوكام) الذي استخدمه لجزِّ تلك

الكائنات المفترضة، وهذا ما سنحاول الكشف عنه من خلال نزعته الاسمية – المنطقيَّة، وحسبنا هنا أنَّنا قد أشرنا مجرَّد إشارة سريعة إلى أهميَّة فلسفة الرياضيات عند رسل على مستوى صناعة منهجه وأدواته المنطقيَّة من غير الغوص في تفاصيل تلك الفلسفة.

2. مشكلة البحث:

إنَّ النقد الذي وجَّهه رسل للمثاليَّة، والمتمثِّل في تحليله للعلاقات المنطقيَّة الداخليَّة، التي اعتمدتها في تشييد بنيانها الميتافيزيقيِّ، واكتشافه للتناقض الذي وقعت به بين المنطق والميتافيزيقا، والذي قاده إلى اعتناق المذهب الواقعيِّ الذي لم يسلم هو الآخر من نقده وتهذيبه له عن طريق تطوير أدوات التحليل والجزِّ المنطقيِّ، يدفعنا إلى التساؤل عن مدى نجاح محاولة رسل تطبيق ذلك التحليل على فلسفته ذاتها، بمعنى آخر هل عبَّرت النزعة الاسميَّة – المنطقيَّة التي انتهى إليها، بحسب تصوُّرنا، عن تناغم وانسجام ما بين منهجه التحليليّ والمشكلات الفلسفيَّة والرياضيَّة التي عالجها المنهج المذكور؟ هذا ما سيحاول البحث الكشف عنه؛ إذ إنَّنا نشكِّك في قدرة أيَّة قراءة على فهم واقعيَّة رسل ونقده للعلاقات المنطقيَّة بدون تلك النزعة المذكورة.

وبناءً على السؤال المحوريِّ السابق، تفتَّقت مجموعة من الأسئلة التي تكفَّل البحث بمحاولة الإجابة عليها: هل نجح رسل، بعد نقده للعلاقات المنطقيَّة الداخليَّة واكتشافه للعلاقات المنطقيَّة الخارجيَّة، أن يصيغ مذهب الواقعيَّة الجديدة دفعة واحدة؟ أم أنَّ الأمر احتاج من رسل إلى تهذيب وتطوير تلك الواقعيَّة بالتدريج عبر مراحل طويلة من تاريخ تطوُّره الفلسفي؟ ثمَّ ماذا بقي من واقعيَّة رسل بعد أن قام بعمليَّة البناء المنطقيِّ للعالم؟ أليس من الأفضل إذ ذاك أن نطلق على فلسفته اسم النزعة الأسميَّة – المنطقيَّة؟

3. أهميَّة البحث وأهدافه:

3.1.أهميَّة البحث:

تتجلَّى أهميَّة البحث في المحاولة الرامية إلى تسليط الضوء على ضرورة تغيير المناهج والأدوات المعرفيَّة والمنطقيَّة، إذ إنَّ تغيير طريقة التفكير واصطناع المناهج الجديدة لكفيلة بتغيير نظرتنا إلى الحياة والعالم من حولنا، وهذا ما يمكن استنتاجه أو تعلُّمه من فيلسوف ومنطقيٍّ فزٍ وعالم رياضيَّات عبقريٍّ كرسل، وهو مثال يُحتذى في هذا الإطار، ولطالما غيَّر مواقفه الفلسفيَّة والمعرفيَّة كلَّما تبيَّن له ضرورة ذلك.

3.2.أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على النزعة الاسميَّة – المنطقيَّة التي تُعدُّ الخيط الناظم لمجمل فلسفة رسل، وهذا ما يمكن اكتشافه في هذا البحث حتَّى في الفقرات التي تتحدَّث عن فهم رسل للعلاقات المنطقيَّة، أو التي تشرح لنا كيفيَّة انتقال رسل من المثاليَّة إلى الواقعيَّة الجديدة التي عمل على تهذيبها وتطويرها باتجاه الاسميَّة – المنطقيَّة.

4. مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائيَّة:

الاسميَّة – المنطقيَّة* **(Nominalism – logicism)**: إنَّ مصطلح الاسميَّة لوحده يشير إلى إنكار وجود التصوُّرات الكليَّة في الأذهان وفي الأعيان، فالكليَّات ماهي إلَّا مجرَّد أسماء، ولكن عندما نقرن مصطلح الاسميَّة بمصطلح المنطقيَّة، فإنَّنا نعني بها من الناحية الإجرائية وجوداً من نوع ما أقرب ما يكون إلى الكينونة المنطقيَّة، فمثلاً العلاقة المنطقيَّة بنظر رسل تمثِّل كينونة منطقيَّة تربط بين الحدود في القضيَّة المنطقيَّة، فضلاً عن تمتُّعها بوجود خارجيٍّ منفصل عن الإنسان وعن الأشياء التي تربط بينها، وبذلك فإنَّ الجمع بين المصطلحين معاً يلطِّف من الحدَّة التي يتمتَّع بها كلٌّ منهما على حدة.

* الباحث.

مبضع أوكام* **(Occam's Razor):** هو مبدأ وضعه الفيلسوف أوكام الذي عاش في القرون الوسطى ومؤدَّاه إنَّك إذا كنت تستطيع شرح شيء أو مسألة بمبدأ أو اثنين، فلماذا ثلاثة وأربعة، لذا، عليك أن تعمل مبضعك فتقطع المبادئ النافلة وتلقيها في البحر، واضح أنَّ مرمى المبدأ هو الاقتصاد الفكري والبساطة، الجدير بالذكر أنَّنا سنستخدم منهج البناء المنطقي بالمعنى نفسه الذي يُستخدَم به مبضع أوكام.

التجريبيَّة التقليديَّة* **(Traditional Empiricism):** نقصد بها كاصطلاح إجرائي التجريبيَّة الإنكليزيَّة التي أسَّسها الفلاسفة الإنكليز في القرن السابع عشر أمثال بيكون ولوك وهيوم، الذين أرجعوا أصل الأفكار الإنسانيَّة إلى الانطباعات الحسيَّة بما في ذلك الأفكار الرياضيَّة، ممَّا أفقد العلوم الرياضيَّة صفتي الضرورة واليقين، وهذا ما حاول رسل في تجريبيَّته المنطقيَّة أن يتحاشاه.

5. الدراسات السابقة:

دراسة لمهران (1974م)، **(منهج التحليل عند برتراند رسل: أدواته وتطبيقاته)** ركَّز فيها على العناصر التي شكَّلت منهج التحليل عند رسل، ومن ثمَّ الانطلاق نحو تطبيق ذلك المنهج على بعض مشكلات الفلسفة كمشكلة المادَّة والعالم الخارجي، وقد رأى الباحث أنَّ رسل قد نجح نجاحاً كبيراً في ذلك التطبيق.

دراسة لفيصل (2017م)، **(المنطق والرياضيَّات عند برتراند رسل)** ركَّز فيها على العلاقة بين المنطق والرياضيات وإسهامات رسل في مجال فلسفة الرياضيات، وقد بيَّن الباحث أهميَّة النزعة المنطقيَّة عند رسل في إيجاد الحلول للكثير من المشكلات الرياضيَّة والمنطقيَّة.

* أنظر كواين، ويلارد، 2006م - من وجهة نظر منطقيَّة، ط1، تر. حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربيَّة - بيروت، ص286.

* الباحث.

دراسة لعدالة (2009م)، **(المنطق الرياضي بين اليقين العلمي والعمق الفلسفي)** طرح فيها نظريَّات المنطق الرياضي، وكيف تمَّ تجاوز المنطق ثنائي القيمة بواسطة المنطق المتعدِّد القيم.

دراسة لجميل (2001م)، **(مفهوم اللزوم المنطقي ومشكلاته)** ركَّز فيها على خصائص اللزوم المنطقي وأنواعه وإيضاح الفروق بين اللزوم المادي واللزوم الصوري، وعلاقة اللزوم بمبحث الموجِّهات.

ثمَّة دراسات أخرى لا مجال لحصرها وذكرها، والمهمُّ في الأمر هنا أنَّ الدراسات التي ذكرناها والتي لم نذكرها، وعلى الرغم من تقاطعها مع دراستنا في العديد من النقاط، إلَّا أنَّها لم تتطرَّق إلى الفكرة الرئيسيَّة التي حاولنا التركيز عليها والمتمثِّلة في محاولة إبراز النزعة الاسميَّة – المنطقيَّة في فلسفة رسل، بمعنى أنَّ الدراسات الأخرى لم تحاول أن تجعل تلك النزعة الخيط الناظم لفلسفة رسل.

6. منهج البحث:

لقد استخدمنا في هذا البحث منهجاً تحليليَّاً تاريخيَّاً لعرض آراء رسل التي خضعت للتطوير والتنقيح من قبله طيلة فترة تفلسفه التي بلغت ثمانين عاماً، الأمر الذي قادنا أيضاً إلى استخدام المنهج المقارن من أجل معرفة التغيُّر أو التطوُّر الذي حدث في فلسفته بين مرحلة وأخرى.

7. نقد رسل للعلاقات المنطقيَّة الداخليَّة في المنطق التقليدي:

تقيم القضيَّة الحمليَّة الأرسطيَّة علاقة منطقيَّة داخليَّة بين الموضوع والمحمول بوصفهما يعبِّران عن تصوُّرات كليَّة خاضعة لمحدِّدين اثنين هما: الكليَّات الخمس من جهة والمقولات العشر من جهة ثانية، فالكليَّات الخمس تحدِّد التصوُّرات من خلال إيجاد علاقة تضمُّن بين التعريف والمعرَّف اللذين يستمدَّان مادَّتهما المعرفيَّة من المقولات

العشر، وهنا لا نجد ثمَّة تمييز بين الجواهر الأولى والجواهر الثواني في المنطق الأرسطي، فلا فرق على سبيل المثال بين (زيد) بوصفه فرداً جزئيَّاً وبين (الإنسان) بوصفه نوعاً، فكلاهما يدخلان في القضيَّة الحمليَّة بوصفهما تصوُّرات كليَّة يتضمن بعضها البعض الآخر، وذلك على الرغم من التمييز الذي أقامه أرسطو بين الجوهرين المذكورين، "فأمَّا الجوهر الموصوف بأنَّه أولى بالتحقيق والتقديم والتفضيل فهو الذي لا يُقال على موضوع ما، ولا هو في موضوع ما، ومثال ذلك: إنسان ما، أو فرس ما، فأمَّا الموصوفة بأنَّها جواهر ثوانٍ فهي الأنواع التي فيها توجد الجواهر الموصوفة بأنَّها أُوَل ... ومثال ذلك أنَّ إنساناً ما هو في نوع، أي في الإنسان، وجنس هذا النوع الحي، فهذه الجواهر توصف بأنَّها ثوانٍ كالإنسان والحيِّ ..." [1]؛ أي أنَّ امتناع ورود الجواهر الأوَل كمحمول والاقتصار على ورودها كموضوع فقط لا يغيِّر من المعاملة الأرسطيَّة لطبيعة العلاقة بين الموضوع والمحمول، وبعبارة أخرى إنَّ القضيَّة الشخصيَّة (زيد فان) لا تختلف العلاقة المنطقيَّة فيها بين الموضوع والمحمول عنها في القضيَّة الكليَّة (كل الناس فانون)، وقد تنبَّه برتراند رسل لهذا الخطأ الخطير في القضايا الحمليَّة التقليديَّة قائلاً: "نشأت أخطاء ميتافيزيقيَّة من افتراض أنَّ (كل الناس) موضوع في قضيَّة (كل الناس فانون) على نفس النحو الذي تكون به كلمة (سقراط) موضوعاً في قولنا (سقراط فان)؛ إذ إنَّ ذلك الافتراض قد مكَّن لبعض الناس أن يذهبوا إلى أنَّ عبارة (كل الناس) بمعنى من معانيها تدل على كائن قائم بذاته، على نحو ما تدل كلمة (سقراط) على كائن قائم بذاته، وهذا هو الذي أدَّى بأرسطو إلى القول بأنَّ النوع جوهر على وجه من الوجوه" [2]؛ فالخطأ هنا بحسب رسل ناشئ عن المساواة الأرسطيَّة بين الفرد الجزئي والنوع الكلي من الناحية

[1] – أرسطو، 1980م – كتاب المقولات منطق أرسطو، ج1، ط1، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم – بيروت، ص36–37.

[2] – رسل، برتراند، 2010 – تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الأول الفلسفة القديمة)، تر. زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ص313.

المنطقيَّة والأنطولوجية، "فلم يكن المنطق الأرسطي يفرِّق بين القول الذي يعبِّر عن دخول فرد واحد في فئة ما، والقول الذي يعبِّر عن دخول فئة في فئة، بل كان يجعلهما على السواء نوعاً واحداً من الكلام، يطلق عليه اسم القضيَّة الحمليَّة"[3]، ذلك الخطأ الذي أدى إلى حذف الواقع الخارجي الذي يُفترَض أن يكون المرجع الأخير لتقرير صدق أو كذب الجزئيَّات المفردة، وهذا ما عوَّلت عليه الفلسفات المثاليَّة لتشييد أنساقها الميتافيزيقيَّة عبر تاريخ الفلسفة، إذ حلَّت فكرة الجوهر ومحمولاته بوصفها تصوُّرات كليَّة تقوم الذات العارفة بنسجها وإنشائها لكي تجعل العالم الخارجي تابعاً لها ويدور في فلكها، فلا معنى لهذا الأخير بل لا اعتراف به منطقيَّاً ومعرفيَّاً وأنطولوجيَّاً إلا من خلال الشرعيَّة التي تمنحه إيَّاها الذات التي تمتلك أدوات المعرفة وملكاتها كما سنرى بعد قليل.

لقد اعتمدت الميتافيزيقا المثاليَّة على العلاقات الحمليَّة الداخليَّة لأنَّ تلك العلاقات هي الأداة المريحة التي تجعل الكثرة الموجودة في العالم الخارجي عبارة عن وهم لا وجود له بشكل منفصل أو مستقلٍّ عن الذات العارفة، ومن ثمَّ يمكن النظر إلى الكون برمَّته من خلال وحدة مثاليَّة تستند إلى مبدأ روحي هو مصدر كلِّ حقائق الوجود، ولا يهمُّ هنا، في رأينا، عدد المقولات في هذه الفلسفة المثاليَّة أو تلك طالما أنَّها اعتمدت نظام العلاقة الحمليَّة التي أقرَّها أرسطو بين الموضوع والمحمول.

لقد وصف رسل تلك العلاقة الحمليَّة بأنَّها داخليَّة لأنَّها تردُّ العلاقة بين الطرفين أو الحدين المرتبطين في القضيَّة الحمليَّة إلى أحدهما، وهذا ليس صعباً طالما أنَّ الحدود المُستخدمة في القضيَّة عبارة عن تصوُّرات كليَّة يمكن أن يحلَّ بعضها مكان البعض الآخر، فلو قلت: الإنسان كائن حي، أو الإنسان جسم أو جوهر، لاستطعت أن تتبيَّن تلك العلاقة الداخليَّة المحايثة بين الموضوع والمحمول دون الحاجة للنظر خارج حدود تلك العلاقة، وبعبارة أخرى إنَّ العمل على تحليل أي جزء من أجزاء نسق القضايا السابقة

[3] – محمود، زكي نجيب، 1951م – المنطق الوضعي، ج1، مكتبة الأنجلو المصريَّة – القاهرة، ص158.

لكفيلٌ بأن يُطلعك على باقي الأجزاء، أي أنَّنا أمام نسق فكريٍّ واحدٍ لا تعدُّد فيه، ومن هنا نستطيع القول إنَّ القضايا الحمليَّة في المنطق الأرسطي تهدف إلى ردِّ الكثرة الموجودة في الكون إلى وحدة مثاليَّة قوامها الكلي المُعبَّر عنه بفكرة الجوهر، "لأنَّ الحكم هو اندراج الموضوع في محمول، أو تداخل حلقة ضيِّقة هي الموضوع في أخرى أوسع هي المحمول، فينتج عن هذا تأليف لكثرة الموجودات في وحدات أعلى، ويحدث إرجاع للكثرة إلى وحدات أعلى فأعلى حتى الانتهاء إلى فكرة الوجود وهي أعمُّ الأفكار"[4] ، وهذا ما يمكن أن تطلعنا عليه شجرة فورفوريوس الصوري، فالإنسان مثلاً ينضوي تحت تصوُّرٍ كليٍّ أكثر عموميَّة وهو الحيوان، وهذا الأخير بدوره ينضوي تحت تصوُّرٍ كليٍّ آخر أكثر عموميَّة من الذي سبقه وهو الكائن الحي، وهكذا حتَّى نصل إلى جنس الجسم، ومن ثمَّ جنس الأجناس المُسمَّى بالكائن أو الجوهر، "وجنس الأجناس هو الذي ليس فوقه جنس يعلوه، ونوع الأنواع هو الذي ليس دونه نوع آخر يوضع تحته، وفيما بين جنس الأجناس ونوع الأنواع أشياء هي بأعيانها أجناس وأنواع، إلَّا أنَّها كذلك إذا قِيست إلى أشياء مختلفة"[5].

هذا يوضِّح لنا لماذا هي العلاقة بين التصوُّرات في المنطق الحمليِّ عبارة عن علاقات داخليَّة إذ إنَّ مجرَّد النظر في موضوعات القضايا الحمليَّة ومحمولاتها تُظهر لنا بوضوح بأنَّه يمكن استنتاج بعضها من البعض الآخر، فلو قلت: الإنسان حيوان ناطق، أو الإنسان جسم أو جوهر، لتبيَّن لك تلك العلاقة الداخليَّة الباطنة بين الموضوع والمحمول دون الحاجة للنظر خارج حدود تلك العلاقة، لقد اعتمدت الفلسفات المثاليَّة

[4] – الفندي، محمد ثابت، 1972م – أصول المنطق الرياضي، ط1، دار النهضة العربية – بيروت، ص70.

[5] – فرفوريوس، 1980م – ايساغوجي منطق أرسطو، ج3، ط1، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم – بيروت، ص 1064.

على نسق القضايا الحمليَّة، لأنَّه نسق فكري واحد لا تعدُّد فيه، يهدف إلى ردِّ الكثرة الموجودة في الكون إلى وحدة مثاليَّة تتربَّع على عرشها فكرة الجوهر.

وجدت الفلسفات المثاليَّة والدينيَّة في العلاقة المنطقيَّة الداخليَّة بين الموضوع والمحمول أساساً متيناً لبناء أنساقها الميتافيزيقيَّة، وهذا ما جعل سيطرة أرسطو الفلسفيَّة والمنطقيَّة تطغى نحو أكثر من ألفي عام على الفكر البشري، ففي العصور الوسطى، خضع الفلاسفة المدرسيُّون لسلطة أرسطو المنطقيَّة بحيث تركَّزت أبحاثهم المنطقيَّة على التصنيف وترتيب الكائنات حسب شجرة فورفوريوس، وكُتِبت السيادة لنوعيّ الاستنتاج الأرسطي المباشر منه وغير المباشر، وأُهمِل الاستقراء، وسيطر منطق العلاقات الداخليَّة، "إنَّ منطق المدرسيين الشكلي انحصر في دراسة التصنيفات، وفي محاولة ترتيب الكائنات، فلم يدرس المدرسيون بإفاضة سوى شجرة فورفوريوس والاستنباط المباشر، أي عكوس القضايا ونقوضها والقياس الأرسطاطالي الذي ينتقل مما هو عام إلى ما هو أقل عموميَّة أو إلى خاص، وأهمل أسلوب التفكير الآخر وهو الانتقال من الخاص إلى العام"[6]، وعلى هذا النحو لا نجد ثمَّة غرابة في عكوف فلاسفة العصور الوسطى على الدراسة الأنطولوجيَّة للمفاهيم والتصوُّرات الكليَّة، فقد قرَّر المذهب الواقعي وجود الكليَّات خارج الذهن في عالم شبيه بعالم المثل الأفلاطونيَّة، بينما ذهب التصوُّريُّون إلى الإقرار بوجود التصوُّرات في الذهن، أمَّا المذهب الإسميُّ فلم يعترف بوجود الكليَّات، فهي مجرَّد أسماء لا حاصلة في العقل ولا متحقِّقة خارجه[7]، وقد أكَّد رسل في كتابه (حكمة الغرب) هذا الهاجس الذي سيطر على العقول في العصور الوسطى قائلاً: "ظلَّت المعركة بين الواقعيين والاسميين حول مسألة الكليَّات محتدمة بعنف طوال العصور

[6] – النشار، علي سامي، 2000م – المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة، دار المعرفة الجامعيَّة – د. م، ص22–23.

[7] – أنظر صليبا، جميل، 1385هـ – المعجم الفلسفي، ج1، ط1، ذوي القربى – قم، ص283–281.

الوسطى"[8]، وهذا ليس غريباً في عصر سيطرت فيه قضايا الدين واللاهوت حيث تسود المجرَّدات والتصوُّرات الكليَّة والعلاقات المنطقيَّة الداخليَّة التي يمكن من خلالها البحث في تفسير الكلمة الإلهية، والإقنوم، وطبيعة المسيح، والخطيئة، وهذا ما ينسجم مع مبحث المقولات المنطقيَّة في المنطق التقليدي بعد استبدال المضامين الفلسفية لتلك المقولات بمضامين دينيَّة، إذ تصبح مقولة الجوهر الأرسطيَّة معبِّرة عن الكلمة الإلهيَّة، وهكذا باقي المقولات، وعلى هذا النحو استغلَّ الفلاسفة المثاليُّون في الفلسفة الأوروبيَّة الحديثة بدورهم العلاقات الداخليَّة التي تقرِّرها القضيَّة الحمليَّة الأرسطيَّة لردِّ كثرة الموجودات إلى وحدة ذات طبيعة فكريَّة أو مثاليَّة، ولقد أدرك رسل هذا السرَّ المنطقيَّ وذهب إلى نقد الفلاسفة المثاليين بالمجمل مُركِّزاً هجومه على ليبنتز على وجه الخصوص، وهذا ما سيظهر في الفقرة الآتية.

8. نقد رسل للفلسفة المثاليَّة والتوجُّه نحو الواقعيَّة الجديدة:

لقد باتت فكرة الجوهر الأرسطيَّة بهذا الشكل المنطقي – الميتافيزيقي تستوعب بوساطة العلاقات الداخليَّة كلَّ التصوُّرات الكليَّة الأخرى، الأمر الذي جعل القضايا الحمليَّة الأرسطيَّة مصدر إلهام لكلِّ الفلسفات الواحديَّة المثاليَّة كما اعتقد رسل، ففي كتابه (عرض نقدي لفلسفة ليبنتز– 1900م) عبَّر عن أهميَّة تلك القضايا بالنسبة للفلسفات المذكورة قائلاً: "السؤال فيما إذا كانت كلُّ القضايا تختزل إلى شكل الموضوع – المحمول له أهميَّة أساسيَّة بالنسبة لكلِّ فلسفة وخاصَّة الفلسفة التي تستند إلى مفهوم الجوهر"[9]، إلَّا أنَّ رسل أدرك أنَّ ليبنتز لم يكن منسجماً في قوله بتعدُّد المونادات أو الجواهر من جهة، وقوله في الوقت نفسه، بالعلاقة الداخليَّة ذات الشكل المنطقي موضوع

[8] – رسل، برتراند، 2009م – حكمة الغرب، ج1، تر. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثقافة – الكويت، عدد364، ص251.

[9]- Russell. B, 1992 - A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz, New Fetter Lane - London, 1992, P13.

– محمول من جهة أخرى، وهذا ما عبَّر عنه (جون سلاتر) بعبارة موجزة في تقديمه للكتاب المذكور آنفاً بقوله: "إن الميتافيزيقا لدى ليبنتز تستند إلى مبدأ أن كل قضية تنسب محمولاً إلى موضوع، وهذا ما بدا له بأنه نفس الشيء تقريباً بأن كل حقيقة تتألف من جوهر يحمل خاصِّيَّة، وهذا الكشف يطبق بالتساوي على فلسفة سبينوزا وهيجل وبرادلي، إذ إن كل واحد منهم أنكر وجود العلاقات الخارجيَّة، ولكن في تلك الحالات تنتج فلسفة أحاديَّة لا تعدديَّة المونادات"[10].

يبدو أنَّ برتراند رسل رأى أنَّ سبينوزا وهيجل وبرادلي* كانوا أكثر اتساقاً من ليبنتز من الناحية المنطقيَّة والميتافيزيقيَّة، إذ إنَّ هؤلاء افترضوا واحديَّة الجوهر انسجاماً مع واحديَّة الموضوع المنطقي، فالعلاقة بين الجوهر ومحمولاته هي علاقة داخليَّة، وهذا ما يمكن التعبير عنه منطقيَّاً بعلاقة الموضوع بمحمولاته أو خصائصه، بينما ليبنتز وعلى الرغم من إقراره بـ "أنَّ القضيَّة الحمليَّة هي الصورة الرئيسيَّة والوحيدة للقضيَّة"[11]، فقد افترض تعددية الجواهر أو المونادات.

ولكن يجب التنبيه هنا إلى عدم رضى رسل عن الفلسفة المثاليَّة القائلة بواحديَّة الجوهر، ناهيك عن عدم رضاه، بطبيعة الحال، عن مثالية ليبنتز القائمة على تعدُّد المونادات أو الجواهر، ذلك أنَّ الفلسفات المثاليَّة عامَّةً تفشل في تفسير العلاقات اللاتماثليَّة في حدود القضايا الحمليَّة، كعلاقة أكبر من التي يمكن أن تقوم بين حدين (أ،

[10]- Russell. B, 1992 - A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz, p. vii.

* برادلي (1846–1924م) فيلسوف إنكليزي من أتباع المثالية المطلقة لذلك تُنعَت فلسفته بأنها هيغليَّة جديدة، نظر إلى العالم ككل، وفي سبيل ذلك بيَّن أنَّ النظر إلى العالم على أنَّه مؤلَّف من موضوعات منفصلة هو نظر متناقض مع نفسه، فالعالم ليس فيه موضوعات منفصلة عن بعضها البعض، وكل ما يبدو من اختلافات مآله إلى الزوال. أنظر بدوي، عبد الرحمن، 1984م – الموسوعة الفلسفيَّة، ج1، ط1، المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر – بيروت، ص319.

[11] – زيدان، محمود فهمي، 1979م – المنطق الرمزي (نشأته وتطوُّره)، دار النهضة العربيَّة – بيروت، ص52.

ب)، أو العلاقات اللاتماثلية التي تعالجها الرياضيات والتي تدور حول العدد والكميَّة، والترتيب، والمكان والزمان والحركة [12].

ولكنَّ نظرة تحليليَّة نقديَّة لفلسفة ليبنتز كفيلة، فيما يبدو لنا، بأن تظهر لنا أنَّ تعدُّديَّة المونادات تتطلَّب علاقات منطقيَّة جديدة هي العلاقات المنطقيَّة الخارجيَّة، ولمَّا كانت هذه الأخيرة تشذُّ عن منطق القضايا الحمليَّة الأرسطيَّة التي لا يجرؤ ليبنتز على مخالفتها بسبب سلطة أرسطو الفكريَّة، ذهب على نحو لا شعوريٍّ إلى كبت ما يمكن أن نسميِّه منطق العلاقات الخارجيَّة؛ بمعنى أنَّه أدرك "أن قضايا العلاقات تختلف عن القضايا الحمليَّة، لكنَّه – اتباعاً لأرسطو – ردَّها إلى حمليَّات" [13].

إنَّ تحليلنا السابق قد يبدو متفقاً إلى حدٍّ كبير مع العرض النقديِّ الذي قام به رسل لفلسفة ليبنتز، لأنَّ العلاقات الخارجيَّة التي تفترضها تعدُّديَّة الجواهر أو المونادات، والتي قلنا بأنَّها ظلَّت أمراً مكبوتاً في اللاشعور الليبنتزي، دفعت ليبنتز إلى عدِّ الجواهر الفردة مغلقة، بلا نوافذ، ومن ثمَّ بلا علاقات خارجيَّة، ولذلك كان لا بدَّ من فكرة الانسجام الأزلي التي خلقها الله في قلب كلِّ مناد أو جوهر فرد، وهذا ما عبَّر عنه رسل قائلاً: "اعتقد ليبنتز أنَّ العالم مكوَّن من ذرَّات روحيَّة، كلُّ ذرَّة منها هي عقل صغير، وكلُّ ذرَّة منها تعكس صورة العالم ... ولما كان ليبنتز قد ضلَّله المنطق الأرستطالي الحملي، فقد اعتقد أنَّ الذرَّات الروحيَّة لا تتفاعل، وأنَّ عكسها صورة الكون ذاته بالرغم من ذلك، يفسره ما قدره الله بينها من انسجام" [14].

---

[12] – مهران، محمد، 1976م – فلسفة برتراند رسل، دار المعارف – مصر، ص228.

[13] – زيدان، محمود فهمي، 1979م – المنطق الرمزي (نشأته وتطوُّره)، ص62.

[14] – رسل، برتراند، 1960م – فلسفتي كيف تطورت، ط1، تر. عبد الرشيد محمودي، مطبعة لجنة البيان العربي – د. م، ص18.

المهمُّ في الأمر هنا أنَّ ليبنتز شكَّل نقطة تحوُّل تاريخيَّة بالنسبة لفلسفة رسل، إذ اهتدى هذا الأخير إلى الإفصاح عن العلاقات المنطقيَّة الخارجيَّة المكبوتة في اللاشعور الليبنتزي، تلك العلاقات التي يمكن أن تربط بين طرفين أو أكثر من ما صدقات العالم الخارجي المحسوس، ففي عرضه النقدي لفلسفة ليبنتز يقول: "يجب أن نعترف، في بعض الحالات بالعلاقات بين الموضوعات، فعلى سبيل المثال: علاقات أكبر من، وعلاقات أصغر من، والعلاقات التي تبيِّن أنَّ الكلَّ أكبر من الجزء، هي علاقات غير قابلة للاختزال"[15]، أي أنَّه ليس بإمكان القضايا الحمليَّة التقليديَّة التعبير عن تلك العلاقات وأمثالها؛ وهذا يعني أنَّ العلاقات المذكورة لا بدَّ أن يكون لها وجود واقعي منفصل عن خصائص كلٍّ من الموضوع والمحمول، فالشيء لا يتميَّز بصفاته فقط، بل يتميَّز بعلاقاته بأشياء أخرى، وأهمُّ ما يميِّز الصفة عن العلاقة، هو أنَّ الموضوع الموصوف بصفة ما يُفهم مستقلَّاً عن سواه، كقولي هذه ورقة بيضاء، أمَّا الموضوع المرتبط بعلاقة ما مع شيء آخر، فلا يُفهم إلا إذا أضيف ذلك الشيء الآخر المرتبط معه بتلك العلاقة[16]، وقد عبَّر رسل عن ذلك بوضوح في كتابه (معرفتنا بالعالم الخارجي) قائلاً: "ثمَّة قضايا تشير إلى وجود شيئين يرتبطان بعلاقة معيَّنة تختلف عن شكل القضيَّة موضوع – محمول، والفشل في إدراك ذلك الاختلاف كان مصدراً للعديد من أخطاء الميتافيزيقا التقليديَّة"[17].

على كلِّ حال لقد اكتشف رسل ذلك التناقض القائم بين المنطق والميتافيزيقا في فلسفة ليبنتز، وكان ذلك الاكتشاف من أهمِّ الأسباب التي عزَّزت لديه فكرة العلاقات المنطقيَّة الخارجيَّة، الأمر الذي قاده إلى هجران الفلسفة المثاليَّة ومن ثمَّ التوجُّه نحو

[15]- Russell. B, 1992 - A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz, p.14.

[16] – محمود، زكي نجيب، 1951م – المنطق الوضعي ، ص78.

[17]– Russell. B,1914 - Our Knowledge of the External Word, The Open Court Publishing Company - London, p45.

الواقعيَّة الجديدة على نحو متطرِّف بحيث نستطيع وصف تلك الواقعيَّة بالواقعيَّة الفجَّة التي تظهر فيها موضوعات الفكر بوصفها كيانات قائمة بذاتها، وهذا ما ظهر بشكلٍ واضحٍ في كتابه (أصول الرياضيات 1903م) إذ يقول: "كلُّ ما يمكن أن يكون موضوعاً للفكر أو ما يمكن أن يرد في قضيَّة صادقة أو كاذبة، أو يمكن أن يُعدُّ واحداً، سأسميه (حدَّاً) ... إنَّ كلَّ حدٍّ له كينونة، يعني يكون بمعنى أو بآخر، فالألفاظ: رجل، لحظة، عدد، فصل، علاقة، والغول، أو أي شيء آخر يمكن ذكره هي بكلِّ تأكيد حدٌّ؛ وإنكار أنَّ شيئاً ما هو حدٌّ يجب أن يكون باطلاً دائماً"[18] ؛ أي إنَّ برتراند رسل يعترف بأنَّ تلك الحدود لها وجود أو كيان قائم بذاته منفصل عن الذات العارفة؛ ففي مقدمة الكتاب المذكور التي كتبها عام 1937م، يقول: "في الوقت الذي كتبت فيه هذا الكتاب كنت أشارك (فريج) الاعتقاد في الحقيقة الأفلاطونيَّة للأعداد، التي كنت أتصوَّرها في خيالي تسكن عالم الوجود الأبدي، وكان ذلك الإيمان مريحاً، ولكنني هجرته فيما بعد مع الأسف"[19]، المقصود هنا أنَّه ترك تلك الواقعيَّة الفجَّة التي جاءت كردٍّ فعلٍ مباشر على انسحابه من معسكر الفلسفة المثاليَّة، وهذا لا يعني تخلِّيه عن الواقعيَّة بشكل كامل بقدر ما يعني تهذيباً وتقويماً لها نحو النزعة الاسميَّة – المنطقيَّة التي جزَّ بموجبها بواسطة نصل أوكام كلَّ الكائنات الزائدة.

ما يعنينا في هذا السياق هو إيضاح أنَّ نظرة برتراند رسل للعلاقات المنطقيَّة قد تغيَّرت عندما تبنَّى الواقعيَّة الجديدة، إذ إنَّه يعترف بمشروعيَّة وجود العلاقة على نحوٍ خارجي ومستقل عن الذات العارفة كباقي الموجودات الأخرى مثل رجل، لحظة، عدد، وفصل ...إلخ، وإن كان ذلك الوجود هو كينونة من نوعٍ ما، ولكن مهما يكن شأن ذلك

---

[18] – رسل، برتراند، 1959م – أصول الرياضيات، ج1، تر. محمد مرسي أحمد وأحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف – مصر، ص89.

[19] – رسل، برتراند، 1959م – أصول الرياضيات، ص12.

الوجود فإنَّه بالضرورة وجود منفصل عن وجود الذات العارفة وتصوُّراتها، وشبيه إلى حدٍّ ما بوجود المثل الأفلاطونيَّة المستقلَّة عن الزمان والمكان؛ وهذا ما عبَّر عنه رسل عندما تحدَّث عن تهذيب نزعته الواقعيَّة تلك متجهاً نحو نزعة اسميَّة – منطقيَّة واضحة إذ يقول على لسان صديقه الرياضي البروفسور (سكويربنت) الذي هتف في حلمه المزعج في وجه الأعداد بصوت جهوري ما أنتم إلا مصطلحات رمزيَّة فماتت، ثمَّ أفاق من الحلم ليقول: وسوف يحدث الأمر نفسه بالنسبة لأفلاطون[20]، وعلى أيِّ حال وعلى الرغم من التطوُّر الفكري الذي تمتعت به حياة برتراند رسل فقد ظلَّ أميناً على الاعتراف بوجود العلاقة المنطقية الخارجيَّة، وإن عدَّل موقفه حيال وجود الأمور الأخرى المذكورة كالعدد والفصل وغيرهما.

9. من الواقعيَّة الجديدة إلى الاسميَّة – المنطقيَّة:

أراد رسل أن يبدِّد المناخ الذي رفع من شأن المثاليَّة – التي روَّج لها كلٌّ من برادلي وماكتجارت وبوزانكيت وغيرهم على حساب التجريبيَّة الإنكليزيَّة التقليديَّة – وذلك على الرغم من وقوعه تحت تأثيراتها في بداية حياته الفلسفيَّة، ولكنَّه سرعان ما اتجه نحو الواقعيَّة الجديدة التي كنَّا قد أشرنا إلى صفتها الفجَّة والتي قادته إلى الاعتراف بوجود العديد من الكيانات، إلَّا أنَّ عناية رسل بأسس الرياضيَّات ومحاولة اشتقاقها من المنطق قادته إلى تبنِّي النزعة الاسميَّة – المنطقيَّة فتمكَّن على هذا النحو من إعادة ألق الفلسفة التجريبيَّة الإنكليزيَّة بحلَّتها الجديدة؛ أي في شكلها التجريبي – المنطقي الجديد.

فالنزعة الواقعيَّة إذن لم تكن سوى مقدِّمة أراد من خلالها القضاء على المدِّ المثاليِّ في بريطانية لينتقل من ثمَّ إلى الاسميَّة – المنطقيَّة المذكورة التي بدأت تعتمل في داخله وتتشكَّل تباعاً خلال تطوُّره الفلسفي الطويل الذي تركَّز على تحليلاته في فلسفة

[20]- أنظر رسل، برتراند، 2002م - عظماء وأحلام مزعجة، تر. نصار عبد الله، دار المعارف - القاهرة، ص82.

الرياضيَّات وفلسفة المنطق وفلسفة اللغة، تلك التحليلات التي وفَّرت له أدوات الجزِّ المناسبة ومكَّنته من بتر كلِّ الكيانات الزائدة التي نتجت من جراء انتقاله المتطرِّف من المثاليَّة إلى أقصى حدود الواقعيَّة الجديدة.

تلك الواقعيَّة التي يمكن وصفها بالواقعيَّة الفجَّة أو الساذجة التي يسلِّم بها الحس المشترك تجسَّدت تلك بشكل واضح في كتابه (أصول الرياضيات – 1903م) كما ذكرنا، حيث كان يعترف بوجود الأعداد والألفاظ الكليَّة مثل رجل وغول ... على أنَّها كيانات واقعيَّة، ولكنَّه سرعان ما هذَّب تلك النزعة الواقعيَّة شيئاً فشيئاً وجزَّ تلك الكائنات المذكورة بعد أن توفَّر لديه أدوات التحليل والجزِّ المناسبة، وهذا ما بدا واضحاً انطلاقاً من كتابه (برنكيبيا – 1913م) وما جاء بعده من مؤلَّفات كان قاسمها المشترك تبنِّي رسل للنزعة الاسميَّة – المنطقيَّة.

بعد أن توفَّر لرسل إذن اللغة المثاليَّة وأدوات الجزِّ المناسبة التي اجتثَّ بموجبها الكيانات العقليَّة المجرَّدة الزائدة، أراد أن يجتثَّ العالم الماديَّ العينيَّ كما هو منظور إليه من وجهة نظر الحسِّ المشترك، لا لكي يتخلَّى عن وجوده، بل لكي يقدِّم طريقةً جديدة في فهم ذلك العالم واستقلاله واستمراريَّته بغضِّ النظر عن وجود أو عدم وجود ذات عارفة أو واعية، وفي هذا السياق يأتي كتابه (مشاكل الفلسفة – 1912م) بمثابة هزة عنيفة للفكر المثالي في انكلترا، إذ يبدأ في الكتاب الآنف الذكر بالشكِّ في وجود العالم الماديِّ شكاً منهجيَّاً شبيهاً إلى حدٍّ ما بالشكِّ المنهجيِّ الذي قام به ديكارت، إلاَّ أنَّ رسل لا ينتهي بموجب شكِّه هو إلى ما انتهى إليه ديكارت، لا بل يستمر في تحليلاته إلى الحدِّ الذي يتجاوز به الثنائيَّة الديكارتيَّة التي أقامت فصلاً حادَّاً بين الذات العاقلة والموضوع.

لقد وصل رسل من خلال تحليلاته المنطقيَّة إلى المعطيات الحسيَّة التي هي النواة الرئيسيَّة لواحديَّته المحايدة التي لا فرق فيها بين ذات وموضوع، بين عقل ذي نورٍ

طبيعيٍّ من جهة ومادَّة ممتدَّة من جهة أخرى كما أدعى ديكارت، إنَّ الوحدة التي يبتغيها رسل تستوعب كلا الطرفين العقل والمادَّة، ولكنَّها وحدة من نوعٍ جديد تفضي إلى كثرة المعطيات الحسيَّة.

وعلى هذا فإنَّ رسل لا يشك بوجود العالم المادي كما فعل ديكارت ليحيله إلى تابع للذات العارفة، إنَّما تركَّز شكُّه على طريقة معرفتنا لذلك الوجود، فهو يرى أنَّ الوجود الماديَّ لا يُعرَف بطريقة مباشرة كما يدعي الحس المشترك، بل إنَّنا نستدلُّ عليه بمعرفة غير مباشرة أو معرفة بالوصف من معطياتنا الحسيَّة التي نعرفها معرفة مباشرة؛ "فالحقيقة التي فحواها أنَّ الناس يملكون موضوعات حس متشابهة وأنَّ الشخص الواحد في مكان معيَّن في أوقات مختلفة له موضوعات حس متشابهة، هذه الحقيقة هي التي تجعلنا نفترض أنَّ هناك شيئاً ثابتاً عامَّاً أعلى وأسمى من موضوعات الحس يقع وراء موضوعات الحس الموجودة لدى الأشخاص المختلفين في الأوقات المختلفة أو يسبِّبها"[21]، فالموضوعات الماديَّة إذن هي الأسباب التي تقبع خلف موضوعات الحس ومن هذه الأخيرة نستدل على وجود تلك الموضوعات الماديَّة وبالتالي على وجود العالم المادي بالمجمل.

ففي هذه المرحلة من حياته ظلَّ رسل ثنائيَّاً مقتنعاً بنظريَّة الثنائيَّة العليَّة في الإدراك؛ إذ إنَّ المعطيات الحسيَّة بوصفها معلولاً مستقلَّة عن الشيء الطبيعي بوصفه علَّةً لها.

ولكن، فيما يبدو، لم يكن رسل راضياً عن ذلك العالم المادي؛ لإنَّه لا سبيل لنا إلى معرفته إلَّا بالمعرفة الاستدلاليَّة أو معرفة بالوصف انطلاقاً من المعطيات الحسيَّة، وهذا النوع من المعارف غير مُحدَّد المعالم وعرضة للصواب والخطأ، وهذا برأينا، من أهمِّ الأسباب التي دفعت رسل إلى إعادة بناء العالم المادِّي بحيث يصبح أكثر ضبطاً من

[21]– رسل، برتراند، 1947م – مشاكل الفلسفة، تر. محمد اسماعيل وعطية هنا، مطبعة دار الشروق – د. م، ص21.

الناحية المنطقيَّة، وعلى هذا النحو اقترح طريقة منطقيَّة جديدة في التعامل مع الشيء المادِّي هي قاعدة البناء المنطقي، وهذا ما ظهر في كتابه (معرفتنا بالعالم الخارجي – 1914م)، وفي مقالتي (علاقة المعطيات الحسيَّة بالفيزيقا – 1914م) و (المكوِّنات القصوى للمادَّة – 1915م)، وبالمجمل فإنَّ معظم أعمال رسل الفلسفيَّة المتعلِّقة بالعالم المادِّي قبل اعتناقه لفكرة الواحديَّة المحايدة (عام 1921م) كان المُراد منها الاستغناء عن طريقة الاستدلال السابقة والاستعاضة عنها بطريقة جديدة للتفلسف العلمي هي قاعدة البناء المنطقي، ولكن كيف تمكَّن رسل من بناء العالم المادِّي بناءً منطقيَّاً؟

إنَّ محاولة الإجابة عن السؤال المطروح من شأنها أن تبيِّن لنا كيف أنَّ النزعة الاسميَّة – المنطقيَّة كانت نزعة متطوِّرة متغيِّرة على طول الخط الذي نظم فلسفة رسل بكاملها ولم تكن أبداً نهائيَّة وناجزة في هذا الكتاب أو ذاك من مؤلَّفاته الكثيرة جداً.

تلك النزعة التي تبتغي تقليص عدد الفرضيَّات والمبادئ التي لا مبرِّر لوجودها وبترها بواسطة نصل أوكام الذي تمَّ شحذه ليصبح أكثر مضاءً وفعاليَّةً بواسطة قاعدة البناء المنطقيِّ المذكورة آنفاً، وهي القاعدة العليا للتفلسف العلمي، بنظر رسل، وتتمثَّل في إحلال الأبنية المنطقيَّة محل الكيانات المُستنتَجة قدر الإمكان [22]؛ أي أنَّ تحليل الأشياء الماديَّة يجب أن يفضي في النهاية إلى أنَّها تركيبات منطقيَّة استُمدَّت من المعطيات الحسيَّة، والمعطيات الحسيَّة الممكنة، وهذه الأخيرة عبارة عن مصطلح جديد وضعه رسل في كتابه (معرفتنا بالعالم الخارجي) ليكون بديلاً عن الشيء المادي المجهول الذي كان يُستدلُّ عليه في كتابه (مشاكل الفلسفة) بواسطة المعطيات الحسيَّة، ومن ثمَّ فإنَّ المعطيات الحسيَّة والمعطيات الحسيَّة الممكنة تصبح مصدراً أساساً لبناء العالم المادي بناءً منطقيَّاً، وقد ظنَّ رسل، فيما يبدو لنا، أنَّ مصطلح المعطيات الحسيَّة الممكنة عبارة

[22]- Russell. B, 1959 - Mysticism And Logic And Other Essays, 11th ed, George Allen & Unwin Ltd – without place, p.155.

عن محاولة لحلِّ مشكلة استقلاليَّة واستمراريَّة العالم المادي بغضِّ النظر عن وجود ذات واعية أو مُدرِكة، فهو يريد أن يفسِّر لنا استمراريَّة العالم المادِّي عند عدم إدراكنا له، إذ إنَّنا عند عدم اتصالنا حسيَّاً مع الشيء المادي ستظلُّ معطياته الحسيَّة الممكنة مستمرَّة في الوجود، وعندما نعود فنتصل به حسيَّاً مرَّة أخرى لا شيء يتغيَّر سوى أنَّ ما كان معطيات حسيَّة ممكنة أصبح معطيات حسيَّة بالفعل.

وعلى هذا الأساس يتمُّ بناء الموضوع المادِّي بالنسبة لفرد من الأفراد من المعطيات الحسيَّة بالإضافة إلى المعطيات الحسيَّة الممكنة، ومن ثمَّ فإنَّ مجموع الموضوعات الماديَّة يشكِّل بناءً منطقيَّاً للمادَّة، فلا مبرِّر لوجود أيِّ كائن مُفترضٍ يقبع خلف المعطيات الحسيَّة وفق قاعدة البناء المنطقي، فالشيء الماديُّ إذن هو وهم منطقي، وكذلك المادَّة.

وعلى هذا النحو فإنَّ تحليل رسل للبناء المنطقي للعالم المادِّي، دفعه إلى القضاء على شيئيَّة الموضوع المادِّي، ولم يبقَ، في تصوُّرنا من عناصر المعرفة الموثوق بها، إلاَّ الإحساس والمعطى الحسيَّ، "وقد أصرَّ رسل في كتابه (معرفتنا بالعالم الخارجي) على التمييز بين: (1) إحساسنا الذي هو حدث ذهني يتمثَّل في إدراكنا لشيء حسي، (2) الشيء الحسي الذي ندركه عن طريق الإحساس" [23].

ولكنَّنا نقول: على الرغم من هذه الثنائيَّة (الإحساس والمعطى الحسي) التي ظلَّ رسل محافظاً عليها في عمليَّة المعرفة منذ تبنيِّه للنزعة الواقعيَّة، فقد اقترب شيئاً فشيئاً من صياغته لنظريَّة الواحديَّة المحايدة، الأمر الذي سيقرِّبه من النزعة الاسميَّة – المنطقيَّة بعد أن تمكَّن من القضاء تماماً على فكرة الجوهر المادي أو بترها ومن ثمَّ إعادة بناء ذلك العالم بناءً منطقيَّاً من نوعي المعطيات الحسيَّة المذكورين آنفاً.

[23] – وود، آلان، 1998م – برتراند رسل، سيرة حياته، تر. رمسيس عوض، المجلس الأعلى للثقافة – د. م، ص 150.

وهكذا فأنَّ الخطَّ العامَّ لتطوُّر رسل الفلسفي والمتمثِّل في الاستمرار بجزِّ الكيانات الزائدة قاده في المحصِّلة إلى الاقتراب إلى حدٍّ كبيرٍ من تلك النظريَّة حتى أعلن في مقال (في القضايا – 1919م) عن نيَّته في الاستغناء عن الذات باستثناء كونها بناءً منطقيَّاً[24]، ومن ثمَّ اعتناقه للواحديَّة المحايدة دامجاً بين الإحساس والمُعطى الحسي، ومعلناً في الوقت نفسه عن ثنائيَّة من نوعٍ جديد هي ثنائيَّة القوانين العليَّة، وفي ذلك يقول: "طوَّر وليم جيمس، في مقالاته عن التجريبيَّة الراديكاليَّة، وجهة نظر مفادها أنَّ العقلي والمادي لا يتميَّزان بسبب الخاصيَّة التي صُنِعا منها، ولكن فقط من خلال قوانينهما السببيَّة، ووجهة النظر هذه جذَّابة للغاية، وقد بذلت جهوداً كبيرة لتصديقها. أعتقد أنَّ جيمس مُحقٌّ في جعل التمييز بين القوانين السببيَّة هو الشيء الأساسي" [25]؛ أي أنَّ ما يحدِّد ما هو عقلي ويميِّزه عمَّا هو مادي هو خضوع الأول للقوانين السيكولوجيَّة وخضوع الثاني للقوانين الفيزيقيَّة، فالصور الذهنيَّة مثلاً تخضع للقوانين السيكولوجيَّة، بينما الأشياء الماديَّة غير المُدرَكة تخضع للقوانين الفيزيقيَّة، ولكن ثمَّة نوع ثالث يخضع لكلا النوعين السابقين من القوانين هو الإحساسات [26]؛ وهذه الأخيرة هي التي تمثِّل الهيولى المحايدة بالمعنى الدقيق، وهذا ما حاول رسل شرحه وتفصيله في كتابه (تحليل العقل 1921م). فهو يوافق على حياديَّة الأحاسيس التي تصلنا من حواسِّنا الخمس، والمعيار الذي يتخذه لهذه الحياديَّة هو خضوع تلك الأحاسيس للقوانين الفيزيقيَّة والسيكولوجيَّة في آنٍ معاً، إذ يقول: "هناك، كما يبدو لي، بشكلٍ أولي أنواع مختلفة للقوانين السببيَّة، بعضها يمت للفيزياء، وبعضها الآخر لعلم النفس، فقانون الجاذبيَّة، مثلاً، هو قانون فيزيائي، بينما قانون الترابط [التداعي] هو قانون علم نفس، الأحاسيس

[24]- Russell, B, 2020 - On Propositions, https://academic.oup.com/aristoteliansupp/ by guest on 12 June, p. 1.
[25]- Ibid, p. 18.
[26]- Ibid.

تخضع لكلا النوعين من القوانين، ولذلك هي محايدة حقّاً"[27]، ويبدو أنَّ كيفيَّة خضوع الأحاسيس لقانون التداعي يأتي من كونها تدخل في تركيب الذاكرة والصور الذهنيَّة، بينما خضوعها لقانون الجاذبيَّة يأتي من كونها موجات أو تردُّدات أو ذرَّات قبل أن تتحوَّل إلى إحساسات بصريَّة أو سمعيَّة أو شميَّة .... إلخ، فبخضوعها لنوعي القوانين المذكورَين تكون حياديَّة بحقّ.

لكنَّ رسل لا يوافق على حياديَّة الصور الذهنيَّة؛ فهي تنتمي إلى العالم الذهني وحده، لأنَّها لا تخضع إلاَّ للقوانين السيكولوجيَّة فقط، ولا يوافق أيضاً على حياديَّة الأحداث التي لا تقع في الخبرة (الجزئيَّات غير المُدرَكة)؛ فهي تنتمي إلى العالم الفيزيقي وحده، لأنَّها لا تخضع إلاَّ للقوانين الفيزيقيَّة فقط، وفي ذلك يقول: إنَّ "الكيانات التي تخضع فقط لقوانين الفيزياء أو لقوانين علم النفس فقط، ليست محايدة، بل يمكن أن تُدعى بالتسلسل ماديَّة خالصة وذهنيَّة خالصة" [28].

فهل نجح رسل فعلاً في عمليَّة البناء المنطقي للذات والموضوع ولكلِّ الكيانات الأخرى التي نتجت عن تبنِّيه للنزعة الواقعيَّة في بداية حياته الفلسفيَّة؟ وبعبارة أخرى هل نجح رسل تماماً في عمليَّة جزِّ وبتر الكائنات الزائدة كلِّها؟

إنَّ نجاح رسل في هذا المسعى هو الذي يحدِّد المدى الذي اقترب فيه رسل من النزعة الاسميَّة – المنطقيَّة، ويمكن القول بأنَّه حقَّق نجاحاً جزئيَّاً على هذا الصعيد، فقد تمكَّن من تحييد كلٍّ من العقل والمادَّة بحدود معيَّنة، فقد بقيت الصور الذهنيَّة والجزئيَّات غير المُدركَة كيانات غير مُحيَّدة، فلم يستطع جزَّها أو بناءها بناءً منطقيَّاً، على الرغم من محاولاته التي استمرَّت في مؤلَّفاته اللاحقة، كما في كتابه (تحليل المادَّة – 1972م).

[27] – رسل، برتراند، 2016م – تحليل العقل، ط1، تر. عبد الكريم ناصيف، دار التكوين – دمشق، ص22.
[28] - رسل، برتراند، 2016م – تحليل العقل، ص 22.

10. نتائج البحث:

- إنَّ النقد الذي وجَّهه رسل للمنطق التقليدي بوصفه الأساس الذي انطلقت منه المذاهب الميتافيزيقيَّة الكبرى عبر تاريخ الفلسفة، ركَّز على أنَّ العلاقة المنطقيَّة الداخليَّة بين الموضوع والمحمول كانت هي المسؤولة عن معظم الأخطاء الميتافيزيقيَّة التي وقع بها أنصار تلك المذاهب، وهذا ما قاده إلى اكتشاف منطق العلاقات الخارجيَّة الذي هو الجزء الفلسفيُّ الأهمُّ في المنطق الرمزيِّ الذي كان له الباع الأكبر في تأسيسه ورسوخ بنيانه.
- إنَّ فرضيَّة النزعة الاسمية – المنطقيَّة هي الفكرة الرئيسة الناظمة لفلسفة رسل من أوَّلها إلى آخرها، وذلك على الرغم من التطوير المستمر الذي قام به رسل لفلسفته طيلة فترة تفلسفه التي بلغت ثمانين عاماً، فمن المعروف عن رسل أنَّه كان يقوم بتطوير آرائه في أوقات متقاربة وعلى نحوٍ مستمر، وهذا ما يمكن ملاحظته منذ بداية تفلسفه عندما بدأ رحلته بالبحث عن الحقيقة ولا سيَّما في مجال فلسفة الرياضيات.
- إنَّ النزعة الاسمية – المنطقيَّة عند رسل أعادت للفلسفة التجريبيَّة الإنكليزية ألقها وقوَّتها بعد أن تمكَّنت من هزيمة الفلسفة المثاليَّة الألمانيَّة التي كادت تكتسح الساحة الفكريَّة في بريطانيا؛ بمعنى آخر لقد رمَّمت تلك النزعة الخلل الناتج عن التجريبيَّة الإنكليزيَّة التقليديَّة التي أحالت كلَّ شيء إلى المعطيات الحسيَّة، وقد لا حظنا أنَّ رسل لم يهمل الوجود الواقعي المحسوس الذي تجلَّى في المعرفة المباشرة للمعطيات الحسيَّة، إنَّما أضاف إلى ذلك عمليَّة البناء المنطقيِّ للعالم والعقل، وهذه واحدة من أهمِّ النقاط التي افتقدتها التجريبيَّة التقليديَّة.
- لقد تحوَّل وضع المادَّة عند رسل، خلال مسيرة بنائها، على الشكل الآتي: فمن الوضع الميتافيزيقي للمادَّة التي تقبع خلف معطياتنا الحسيَّة في كتابه (مشاكل

الفلسفة)، إلى الوضع المنطقي للمعطيات الحسيَّة الممكنة في كتابه (معرفتنا بالعالم الخارجي) إلى الوضع الفيزيقي للجزئيات غير المُدرَكة في مؤلَّفاته اللاحقة ككتاب(تحليل المادَّة)، ولعلَّه لا يخفى على المدقِّق في مؤلَّفات رسل الدور الذي لعبه منطقه بوصفه أداةً مشحوذةً لجزِّ الكائنات الميتافيزيقيَّة وتحويلها إلى كائنات فيزيقيَّة، فهل يمكن القول بأنَّه يسعى إلى تشييد ميتافيزيقا علميَّة تستضيء بنور العلم وتهتدي بهديه؛ وتبتعد، في الوقت نفسه، عن الميتافيزيقا التقليديَّة ذات الأبنية المسكونة بأشباح الجواهر التي لا نعرف عنها شيئاً؟

- أخيراً ألا يجب أن نتعلَّم درساً مهمَّاً من فلسفة رسل التي قلنا بأنَّه عمل على تطويرها على طول الخطِّ الذي ينظم مشواره الفلسفيّ الطويل من أوَّله إلى آخره؟ ألا يجب أن نتعلَّم كيفيَّة تغيير آرائنا وأفكارنا إذا ثبتت لنا بالدليل العلمي القاطع أنها خاطئة؟! ألا يجب أن نعيد صياغة تصوراتنا لقضايا الكون والحياة بناءً على التطوُّرات العلميَّة متبعين في ذلك المنهج الذي اتبعه رسل، والذي دفعه إلى بتر كلِّ الفرضيَّات الزائدة التي لا تستطيع أن تفسِّر شيئاً فضلاً عن عرقلتها للتفكير المنطقيِّ السليم؟!

11. قائمة المصادر والمراجع:

11.1. قائمة المصادر باللغة العربيَّة:

1. رسل، برتراند، 1947م – مشاكل الفلسفة، تر. محمد اسماعيل وعطية هنا، مطبعة دار الشروق – د. م، 140 صفحة.
2. رسل، برتراند، 1959م – أصول الرياضيات، ج1، تر. محمد مرسي أحمد وأحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف – مصر، 184 صفحة.
3. رسل، برتراند، 1960م – فلسفتي كيف تطورت، ط1، تر. عبد الرشيد محمودي، مطبعة لجنة البيان العربي – د. م، 264 صفحة.
4. رسل، برتراند، 2002م – عظماء وأحلام مزعجة، تر. نصار عبد الله، دار المعارف – القاهرة، 121 صفحة.
5. رسل، برتراند، 2009م – حكمة الغرب، ج1، تر. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثقافة – الكويت، عدد364، 303 صفحة.
6. رسل، برتراند، 2010 – تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الأول الفلسفة القديمة)، تر. زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، 455 صفحة.
7. رسل، برتراند، 2016م – تحليل العقل، ط1، تر. عبد الكريم ناصيف، دار التكوين – دمشق، 319 صفحة.

11.2. قائمة المصادر باللغة الأجنبيَّة:

1. Russell. B, 1992 - A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz, New Fetter Lane, London, 383 pages.
2. Russell. B,1914 - Our Knowledge of the External Word, The Open Court Publishing Company, London,264 pages.
3. Russell. B, 1959 - Mysticism and Logic and Other Essays, George Allen & Unwin Ltd, 11th ed, without place, 138 pages.
4. Russell, B, 2020 - On Propositions, https://academic.oup.com/aristoteliansupp/ by guest on 12 June, pages.

11.3. قائمة المراجع باللغة العربيَّة:

1. أرسطو، 1980م – كتاب المقولات منطق أرسطو، ج1، ط1، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم – بيروت، من 5 إلى 323 صفحة.
2. بدوي، عبد الرحمن، 1984م – الموسوعة الفلسفيَّة، ج1، ط1، المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر – بيروت، 593 صفحة.
3. زيدان، محمود فهمي، 1979م – المنطق الرمزي (نشأته وتطوُّره)، دار النهضة العربيَّة – بيروت، 304 صفحة.
4. صليبا، جميل، 1385هـ – المعجم الفلسفي، ج1، ط1، ذوي القربى – قم، 765 صفحة.
5. فرفوريوس، 1980م – ايساغوجي منطق أرسطو، ج3، ط1، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم – بيروت، من 705 إلى 1104 صفحة.
6. الفندي، محمد ثابت، 1972م – أصول المنطق الرياضي، ط1، دار النهضة العربية – بيروت، 225 صفحة.
7. كواين، ويلارد، 2006م – من وجهة نظر منطقيَّة، ط1، تر. حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربيَّة – بيروت، 317 صفحة.
8. محمود، زكي نجيب، 1951م – المنطق الوضعي، ج1، مكتبة الأنجلو المصريَّة – القاهرة، 532 صفحة.
9. مهران، محمد، 1976م – فلسفة برتراند رسل، دار المعارف – مصر، 407 صفحة.
10. النشار، علي سامي، 2000م – المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة، دار المعرفة الجامعيَّة – د. م، 538 صفحة.
11. وود، آلان، 1998م – برتراند رسل، سيرة حياته، تر. رمسيس عوض، المجلس الأعلى للثقافة – د. م، 319 صفحة.

12. Sources and references:(In Arabic)

1. Al-Fandi, Muhammad Thabet, 1972 - Principles of Mathematical Logic, Dar Al-Nahda Al-Arabiyya, 1st ed, Beirut, 225 pages.

2. Al-Nashar, Ali Sami, 2000 - Formal Logic from Aristotle to our Present Times, Dar Al-Marifa Al-Jamiia, without place, 538 pages.

3. Aristotle, 1980 - The Book of Categories, Aristotle's Logic, part. 1, edited by Abdul Rahman Badawi, Dar Al-Qalam, 1st ed, Beirut, from 5 to 323 pages.

4. Badawi, Abdul Rahman, 1984 - The Philosophical Encyclopedia, part. 1, Arab Foundation for Studies and Publishing, 1st ed, Beirut, 593 pages.

5. Mahmoud, Zaki Naguib, 1951 - Positive Logic, Part 1, Anglo-Egyptian Library, Cairo, 532 pages.

6. Mahran, Muhammad, 1976 - The Philosophy of Bertrand Russell, Dar Al-Maaref, Egypt, 407 pages.

7. Porphyry, 1980 - The Isagogy of Aristotle's Logic, part. 3, edited by Abdul Rahman Badawi, Dar Al-Qalam, 1st ed, Beirut, from 705 to 1104 pages.

8. Quine, Willard, 2006 - From a Logical Point of View, Trans by Haider Haj Ismail, Center for Arab Unity Studies, 1st ed, Beirut, 317 pages.

9. Russell, Bertrand, 1947 - Problems of Philosophy, Trans by Muhammad Ismail and Attia Hana, Dar Al-Shorouk Press, without place, 140 pages.

10. Russell, Bertrand, 1959 - Principles of Mathematics, part. 1, Trans by Muhammad Morsi Ahmed and Ahmed Fouad Al-Ahwani, Dar Al-Maaref - Egypt, 184 pages.

11. Russell, Bertrand, 1960 - My Philosophy How It Developed, Trans by Abdul Rashid Mahmoudi, Arab Bayan Committee Press, 1st ed, without place, 264 pages.

12. Russell, Bertrand, 2002 - Greats and Bad Dreams, Trans by Nassar Abdullah, Dar Al-Maaref, Cairo, 121 pages.

13. Russell, Bertrand, 2009 - The Wisdom of the West, Part. 1, Trans by Fouad Zakaria, World of Knowledge Series, National Council for Culture, Kuwait, No. 364, 303 pages.

14. Russell, Bertrand, 2010 - History of Western Philosophy (Book I of Ancient Philosophy), Trans by Zaki Naguib Mahmoud, Egyptian General Book Authority, Cairo, 455 pages.

15. Russell, Bertrand, 2016 - The Analysis of Mind, Trans by Abdul Karim Nassif, Dar Al-Takween,1st ed, Damascus, 319 pages.

16. Saliba, Jamil, 1385 AH - The Philosophical Dictionary, part. 1, Dhul Qirba, 1st ed, Qom, 765 pages.

17. Wood, Alan, 1998 - Bertrand Russell, His Biography, Trans by Ramses Awad, Supreme Council of Culture, without place, 319 pages.

18. Zidane, Mahmoud Fahmy, 1979 - Symbolic Logic (its Origins and Development), Dar Al-Nahda Al-Arabiya, Beirut, 304 pages.